كتاب ابن لقمان



الساحرة والمدينة الضاحكة

«كُوخُ الأَحْلامِ»

نبيل خالد

دار ابن لقمان للنشر

●● (الساحرة والمدينة الضاحكة)

كوخ الأحلام

●● بقلم: نبيل خالد

●● تليفون وفاكس: ٠١٢/ ٣٧٤٠٥٦٧

٠٥٠/ ٣٦٩٥٨٨

●● رقم الإيداع: ٨١٦٣/ ٢٠٠٠

●● لوحة الغلاف: الفنان / أحمد الجناينى

●● تصميم الغلاف: م/ علاء فتحى عجوة

مكتب يارا للإعلام العربى. المنصورة

٢٢ ش الشهيد المعتز بالله أمام

كلية الآداب ☎: ٠٥٠/٣٦٩٥٨٨

مطبعة جزيرة الورد. المنصورة. نوسا البحر

☎: ٠٥٠/٤٤١١٩١

●● جمع كمبيوتر: رفعت عقيل

●● المراجعة/ الشاعر: السيد الخيارى

●● مونتاج: أ/ عبد الخالق عبد النبى

خرجَ هشامٌ وسامحُ وراَويةُ فى رحْلةٍ لجبلٍ عَتَاقَة وبينما كان هشامُ وسامحُ يتسلقان أحدَ الجبالِ دَخلتْ راويَةُ مغارةً ما لترى ما بها وشدَّتها جُدرانُها التى تكفى لدخولِ فردٍ واحدٍ ولكنها وصلت إلى مكانٍ لم تستطعْ الدخولَ فيه لضيقِ الجدران فنظرتْ فوجدتُ رُخَامةً على الأرضِ عجيبةً مرسومٌ عليها غزالةٌ تكاد أن تَنْطِقَ من فَرْط دِقَّة رَسْمِها ولاحظتْ أن عيْنَيْها مُثَبتتانِ بهما جوهرتانِ جميلتان فاندهَشَت وأرادتْ الحصولَ على هاتينَ الجوهرتين، لكنَ يدَيْها لَمْ تصلا لمكانِ الجوهرتين فأحضرتْ عصاً طويلةً ومَدتَّها، ولما لَمِسَتْ الجوهرةَ اليُمْنى بدأ الجدارُ يتسعُ إلى أن سمَحَ بدخولِها فدخلتْ مندهشةً وجلستْ أمام الغزالة تنظر إلى الجوهرتين فى دهشة وحاولت أن تُخرجَهُمَا فلم تقدرْ فأخرجتْ إحدى أسنانِ الغزالة لتُزَحْزِحَ بها الجوْهَرةَ وما إن لمِسَتْ السَنّةُ عينَ الغزالةِ حتى قامت الغزالةُ وجَرَتْ بسرعةٍ حتى اختفت ووجدت راويةُ أن مكانَ الغزالةِ قد أصبحَ بئرًا عميقةُ مثبَتٌ بها سُلْمٌ من الرخام فنزلت فى حَذرٍ حتى لَمِسَتْ قدماها السُّلمةَ الثالثةَ فتحرك بها السُّلمُ إلى أسفلِ البئرِ واندهشت عندما رأتْ أنها قد أصبحتْ فى أرضٍ فسيحةٍ ومُضَاءَةٍ بنورَ هو أشبَهُ بنورِ المَشَاعِلِ وإن لم يكنْ هناك مشاعلٌ! فتمشتْ إلى أنِ قابلت نهرًا عظيما فمَدَّتْ يَدَيْها وبَسَطَتْهُما

واغتَرفَتْ منه وشَرِبتْ، وما كادت تَشْربُ الماءَ حتى تَحَّولَ النهرُ إلى بخار عظيم يصاحِبُهُ صوتُ غَلَيانِ الماءِ فابتعدتْ لترى ما يَحْدثُ وبعدَ لحظاتٍ تحوَّلَ الدُّخَانُ العظيمُ إلى ساحرةٍ نظرَتْ إلى راويةَ وقالت:

ـ أنا خادمةُ هذا النهرِ ومن يَشْرَبْ منه أجعَلْهُ يزورُ مدينةً من مُدُن العجائبِ.

قالت لها راويةُ:

ـ أينَ أنَا؟

ـ أنتِ فى أرضِ العِبَر.

ـ ولماذا كان اسمُها أرضَ الَعبَرِ؟

ـ لأن من يزورُها يَرى أشياء تجعلهُ حكيمَ زمانهِ .

ـ وما هى هذه المغارةُ التى دخلتُ أنا فيها؟

ـ إنها كُوخُ الأحلامِ.

ـ ولماذا كان اسمُهُ كوخَ الأَحلامِ.

ـ لأن من يدخله يرى أشياءَ قد لا يراها فى الأحلامِ.

ـ وما هى المُدِّنُ العجيبةُ.

ـ سأجعَلُكَ تَزورينَ أولَ مدينةٍ فيها.

ـ ما اسمُها. ؟

ـ المدينةُ الضاحكةُ!

ـ اسمٌ جميلٌ. !

ـ لا تَحْكُمِى على شىءٍ لَمْ تَرَيْهِ بَعْدُ.

ضَحِكَتْ راويةُ قائلةً:

ـ هذه أولُ العِبَرِ التى تَعَلمْتُها.

رَدَّتْ الساحرةُ:

ـ لا تضحكى. . غداً ستعرفينَ أنها بالفعلِ عِبْرةُ العِبرَ.

ـ أنا متشوِّقةٌ لزيارةِ المدينةِ الضاحكةِ. . فأرجوك أسرِعى بى إلى هناك.

ـ حالاً

وضعتْ الساحرةُ يدَها فى جَيْبِهاَ وأَخرجَتْ مِنْدِيلا وسلَّمتَه لراويةَ قائلةً.

ـ ضَعِى هذا المِنّدِيلَ فى جَيبكِ وهو يَصِلُ بِكِ إلى هناك.

أخذت راويةُ المنديل ووَضَعَتْه فى جيْبِها فأحستْ أنها ترِيدُ

أن تنامَ فاسْتلَقَتْ على الأرضِ ونامَتْ.. ولما فَتَحتْ عَيْنيْها وجدْت أنها فى مكانٍ غيرِ الذى كانت فيه. وجدت نفسها فى مدينةٍ غريبةٍ بيُوتُها تختلفُ عن العمارات التى تعرفها وأرضُها ليست كالأرضِ التى تَعْرفُها فالمنازلُ لونُهَا فى لونِ السُّبْحة الكهرَمانِ والأرضُ فى لون السحابِ بل كأنَّها بالفعل سحابٌ ولكنها صَلْبَةُ ومستويَةُ مع أنه يُخَيَّلُ للناظرِ أنها مُمَوَّهَةٌ[1].. وقفت راويةُ مندهشةً فكُلُّ أهلِ المديَنة يضحكون بعنف ولما تَتبَّعَتْ واحداً منهم اكتشفتْ أنه يضْحكُ بشَرَاهَة خُيِّلَ لها معها أنه سيموتُ من كثرة الضَّحكِ وحاولتْ أن تُكَلِّمَ أى فردٍ فى المدينةِ فلم تتمكَّنْ فالكُلُّ يضحكُ بعنفٍ ولا يتكَّلمُ ! فقَطْ؛ يضحكُ ولما أخفقتْ فى التَّحَدُّث معهم اختارتْ شجرة تفّاح وجلستْ تحتهَا ونامتْ فترةً وبَعْدَ أن أفاقت مَدَّت يَدها لتلتقط تفاحةً وشَمتْ رائحتها فوجدتها رائعةً وسال لها لُعَابها فوضعتها على فمها وما كادتْ تَقْضِمُ منها حتى تحولتْ التفاحةُ إلى ذهبٍ ففرحتْ جدا وقالت فى نفسِهَا.

ـ لقد أصبحتُ من الأغنياءِ.

---

(١) التموية: **Le camouflage**.. كالتعمية والإخفاء لغرض.. وكالتنكير.. وحرصا على عدم إطلاع الأعداء عليه وكشفه.. المصحح..

ـ لقد أصبحتُ من الأغنياءِ.

وضعَتْهَا فى حَقيبتهَا وسارتْ فوجدتْ بئرَ ماءٍ فمدت الحبلَ وأخرجتْ الماءَ منها وأخرجت الكوبَ وملأته بالماءِ ولما وضعتْ الماءَ على فَمِها وجَدتْهُ قد تحول إلى قطعٍ من اللؤلؤِ والمَرْجانِ ففرحتَ وقالت:

ـ لقد أصبحتُ مِليونيرةً. أُريدُ كلَّ هذا الذهبِ وكلَّ هذه الجواهرِ ولا أريدُ شيئاً آخرَ.

ظلتْ راويةُ تجمعُ ثَمارَ الفاكهَةِ من فوق الأشجارِ وتضعُها فى فمَها لتتحولِ إلى ذهبٍ وتضعُ الماءَ على شفتيها ليتحول إلى ياقوتٍ ولؤلؤٍ وزُمُرُّدٍ وَجَواهِرَ حتى امتلأت حقيبتُها وتعبَتْ من السير واكتشفت أن بطنها خَاويةٌ وأنها تريدُ أن تأكلُ وقد جفّ ريقُها وأرادتْ أن تشرب لكنها لم تَعْرِف ماذا تفعلُ فظلت تجرى وتَخْطِفُ ثمارَ الفاكهة من فوق الأشجار وتحاولُ أَكْلَهَا لكنها كانت كلُّها تتحولُ إلى ذهبٍ فَتَرمِيَهاَ ثم تُحاوِلُ أن تشرب فيتحولُ الماءُ إلى جواهرَ فترمِيَها ثمّ بَعْثرتْ حقيبتَهَا وصرختْ.

ـ لا أُريدُ ذهباً لا أريدُ جواهِرَ.

واندهشَتْ عندما وجَدتْ أنْ صدَى صوتها لا يُرَدِّدُ نَفْسَ ما قالَتْهُ لقد كانَ صدَى الكلماتِ وحدَه هو الذى يُرددُ:

ـ أنتِ التى اخترتِ الذهبَ ! أنتِ التى اخترتِ الجواهِرَ

صرخَتْ قائلةً لصَدَى صوتها:

ـ أنا ظمآنة! أنا جائعةٌ ! لا أريدُ الذهبَ لا أريدُ الجواهرَ! .

صرخت وبكت بعنفٍ! دَقَّتْ بقدمَيْها الأرضَ قائلةً:

ـ لقد نَدِمْتُ! لا أريدُ الذهبِ ! لا أريدُ الجَوَاهِرَ.

وما إن تساقطت دموعُها على الأرضِ حتى صارَتْ الأرضُ تهتزُ بعنفٍ وظهَرَ دُخَانٌ كثيفٌ خرجَتْ منه فتاة وقالت:

ـ أنا خادمةُ النَّدَمِ . . ماذا تُريدينَ؟

نظرتْ لها راويةُ مندهِشةً وقالت:

ـ ما معنى خادمةِ النَّدِمَ؟

قالت



ـ هل بكيتِ وضربتِ الأرضَ بقدميكِ وقُلْتِ أنا نادمةٌ

قالت راويةُ:

ـ نَعَمْ!

ـ هذه كلمةُ السرِّ التى تستطيعينَ بها أن تُحْضِرِينى من أى مكانٍ

قالتْ راويةُ:

ـ أنا ظمآنة وجائعةٌ وكلما أكلتُ طعاماً تحولَ إلى ذهبٍ وكُلما شربتُ ماءً تحولَ إلى جواهرَ.

ـ وماذا تُريْدِينَ؟

ـ أريدُ ماءً لا يَتَحَوَّلُ إلى جواهَرِ وطعاماً لا يتحوَّلُ إلى ذَهَبٍ.

ـ حالاً.. فقط أَغمِضى عَيْنَيك.

أغمضَتْ راويةُ عَيْنَيها ووجدتْ أنها فى طَابُورٍ طويلٍ من أهلِ المدينةِ وكلٌّ فردٍ قد انقلبَ حالهُ من الضحِكِ إلى البُكاءِ وهو يقول:

ـ أنا لا أُحِبُ الذَهَبَ.

ويتناولُ ثمرةَ الحَنْظَلِ ويأكلُها على مَضَضٍ وكلما قَضَمَ قَضْمةً يقول:

ـ أنا لا أحُبُ الذَهَبَ.

وقوماً آخرَيْنَ يتَنَاوبُون على بِئْرِ ماءٍ ولكَنّهُ ماءٌ لونُه أسودُ

ويشربُ كُلُّ فَرْدٍ على مضَضٍ وكلماَ شَرِبَ شربةً يقولُ:

ـ أنا لا أُحبُ الجواهِرَا! أنا لا أُحِبُ الجَواهِرَ.

وتناولتْ حبَّةَ الحَنَظْلِ على مضَضٍ وهى تقول:

ـ أنا لا أُحبُ الذهَبَا! أنا لا أُحبُ الذَهَبَ.

وتناولَتْ كُوبَ الماءِ على مَضَضَ وقالت.

ـ أنا لاَ أُحبُ الجواَهِرَ أنا لا أُحبُ الجَواهِرَ.

ووقفتْ تَتَفَرَّجُ على أهلِ المدينةِ وتَصَرُّفاتِهِمْ العَجيبةَ وقالت فى نفسِها:

ـ لابُدَّ أن أَعْرفَ سرَّ هذه المدينةِ! ولكْن كَيفَ!

نَظَرتْ حَوْلَها فَوجَدِتْ منزلاً فوقَ هَضَبَةٍ عاليةٍ ومن حولَه حَديقةٌ تكادُ ثِمَارُها تضىءُ فبَهَرَهَا منظرُ المنزلِ وقررتْ أن تذهب إليه وسارْت وكلما اقتربتْ من المنزلِ تَنْبَهِرُ أكثَرَ من الضوءِ الذى يَنْبَعثُ من الثمارِ ولكنْ المسافةَ بعيدةٌ وقد تعبَتْ من المَشْى فجلسَتْ على الأرضِ وما إن جلستْ حتى سَمِعتْ صَوْتا يقولُ:



ـ أرجوكِ قُومى سأَخْتَنِقُ

قامتْ ونظرتْ بأسفَلَها فرأتْ وردةً جميلةَ واحدةً فقَطْ فقالت:

ـ من يتكلمُ؟

اهتزتْ الوردةُ وقالت:

ـ أنا الوردةُ

اندهشتْ وقالت لها:

ـ هل توجَدُ وردةٌ تتكلمُ؟

ـ أنا لستُ وردةً.

ـ مَنْ أنتِ إذَنْ؟

ـ أنَاَ إنسانَةٌ مُثْلَكَ من دَمٍ ولَحْمٍ.

ـ أنتِ وردَةٌ.

ـ أَقْصِدُ أنني كنتُ إنسانَةً مِثْلَكَ.

ـ ومن حولِك وردةً.

ـ هذا سرٌ لا أَقْدِرُ أن أحْكِيَهُ.

ـ ومن يَحْكِيهِ؟

ـ الشيخُ حامِدُ.

ـ وأين الشيخُ حامدُ؟

- أستطيعُ أن أجعلَ المسافةَ تقتربُ جِدا.

- كيفَ؟

- شُمِّى رائحَتِى بِعُمْق.

انحنَتْ وشَمَّتْ عَطرَهَا بعُمقٍ وكان عطرا أكثَرَ من رائعٍ فَأغمَضَتْ عينيَهْاَ ولماَّ أفاقتْ وجدتْ نفسَهَا على أبوابِ المنزِلِ الذى تُحيطُ به حديقةٌ ثمارُ أشجارِها تُضىءُ ولم تَجْدْه منزلاً عادياً لكنها وجِدَتْهُ قصرًا كبيرًا ولكنْ بابَهُ مُغْلَقٌ. دارت من حولَ السورِ فلم تجدْ مَنْفَذاً تَدْخُلُ منه تَعبتْ فرَجعت للبَوّابَةِ وظلتْ تُحاولُ فَتْحَها بدِونِ جَدَوْىَ فجلستْ أمامَها ونامَتْ من فَرْطِ التعبِ ولما استيقظَتْ وجَدَتْ القَصْرَ قد انتقلَ بعيداً عنها ولم تَعْرِفْ ماذا تَفْعَلُ ووجِدَتْ بِجُوَارِهَا وردةً فاقتربَتْ منها وشمَّتْها وأغمَضَتْ عَيْنَيْها وعندما فَتَحتْهُما وجدَتَ نفسها فى مكانِها لم تنتقلْ للقَصْرِ فبكتْ وما كادَتْ تنزِل دُمُوعُها على الأرضِ حتى وجَدتْ الزهرةَ تبكى معها فسألتها:

- لماذا تَبْكِينَ؟

اقتربتْ منها وقالت:

ـ أُريدُ أَنْ أذْهَبَ لقَصْرِ الشيخِ حامدٍ؟

قالت لها الوردةُ:

ـ اقْطِفينِى

انزعَجَتْ وقَالتْ لها:

ـ ألستِ إنسانةً مِثْلِى.

ـ بَلَى.

ـ إذنْ كيف أقْطِفُكِ؟

ـ أنا أَنتقلُ كلَّ مَوْسمٍ من هنُا لقَصْرِ الشيخِ حامدٍ وهذا موعدُ انتقالى.

قَطفَتْها وبُمَجَرَّدِ أنْ خَلَعَتْهاَ من الأرضِ حَتى وجدَتْ نفسها تطِيرُ وتنزلُ عند القصرِ ولَما وصَلتْ للبابِ قالت لها الوردةُ:

ـ قَرِّبِيْنى منِ البَوابَةِ حتى أَلْمسَها.

قَرَّبَتْها إلى أن لَمِسَتْ البَّوابَةَ فوجدتْ البوابَة تُفْتح وَحْدَهاَ فدخلتْ ونظرَتْ للوردة التى فى يَدَيْها فلمَ تَجدْهاِ فصَرَختْ:

ـ أينَ أنتِ؟



لم تَرُدَّ. تَوَجَّهَتْ راوِيةُ لبابِ القصر وفى الطريقِ شَعُرَتْ بالجُوعِ فَمدَّتْ يدَهَا لتُفَّاحةٍ لتَقْطِفَهَا فنزَلَتْ منَ التفاحةِ دموعٌ وقالت لها:

- أرجوكِ لا تَقْطِفِينى.

- أنا جائعةٌ.

ـ لكنَّنى لستُ تفَاحَةً.

ـ فَمنْ أَنْت؟

ـ أناَ إنسانَةٌ من دَمٍ ولَحْمٍ وإذا أنت قَطَفْتِينى فإنِّى أظلُّ أنزِفُ دَماً وتُصْبحِيْنَ أنت قاتلةً؟

انزعجَتْ وتراجَعَتْ وقالتْ:

ـ لن أَقْطفَكِ ولكنْ احكِى لى حكايَتَكِ.

ـ استأذنى الشيخَ حامِد.

وبيَنَما هى تسيرُ إذ وجَدتْ نَهْراً فأحَسَّتْ بالظمأ فتوجَّهتْ إليه لتشرَبَ وما إنْ مَدَّتْ يَدَيْها لتغْتَرِفَ منه حتى قال النهَرُ لها:

ـ أرجوكِ لا تشَربى.

ـ لماذا! أنا عَطْشَانَةٌ؟

ـ أنا لستُ نهراً عادياً.

ـ وإذنْ فمَنْ أنْتَ؟

ـ أنا سرُّ الماءِ فى الكَونْ.

ـ إذنْ دَعْنى أشَرَبْ.

ـ لو شَربْتِ فسَأَنْقُصُ!؟

ـ وماذا سيَحَدْثُ لو نَقُصْتَ!

ـ سيجِفُّ نَهْرٌ من الدنْيا مع كُلِّ غُرْفَة، وتجوعُ بَلْدَة! رَدَّتْ

وهى تَتَنَهَّدُ وقالت:

- لنْ أشْربَ ولكنْ احْكِ لى قصةَ هَذِهِ المدينةِ.

- أستأذنى الشيخَ حامدَ أوّلاً.

جرَتْ لتَدْخُلَ القَصْرَ وما إنْ وصَلتْ لباب المَبْنَى حتى وجَدَتْ البابَ يَخْتَفى. . المبنىَ بدون باب، ووجدت سُلّماً فصَعدَتْ عليه وما إنْ وصَلَتْ إلى سَطَحِ المبنى حتَى اهتزَ السُلَّمُ وقال لَها:

- انْزلى ثانيةً.

- لماذا؟

- ادْخُلى البَيْتَ من بابِه.

- لم أجِدْ البابَ! لقد اخْتَفَى.

صرَخَ بصوتٍ أزْعَجَهاَ وقال:

- بالسَّعْى والعَمَل ستَجَدِيْنَ البَابَ.

نزلَتْ وراحَتْ تَبْحَثُ عن الباب فلم تَجدُه فَغَضبَتْ ودقَّتْ الحائطَ بَيَديْهَا فانْفَتَحَ الحائطُ فَتْحَةً تكْفِى لمُرورهَا فدخَلَتْ وظَلَتْ تسيرُ فى الفتحة مَدةً طويلةً وهى لا تَجدُ نهاية لها ثم بَدأَتْ الفَتْحَةُ تَضيْقُ وتَضِيْقُ حتى خافَتْ أن تُطْبِقَ عَلَيْها وقالتْ بصوتٍ عالٍ.

- لقد تَعَذَّبْتُ.

- من يَرْحمُنى؟

ـ من يُخْرُجُنى مِنْ هذا المأزِقِ؟

وتذَكَّرَتْ أَنهاَ تُرِيْدُ أنَ تَعْرِفَ سِرَّ هذه المدينَةِ العجيبَةِ التى يَضْحَكُ جزءٌ من أهلهَا بشَدَةٍ وكُلَّما حاولَ أحدٌ أن يتذَوَّقَ الطَّعَامَ تحولَ إلىِ ذَهب ومَنْ يتذوقَ الماءَ يتحولْ المَاءُ إلى جواهر! لماذا يتعذبون هكذا؟ وكيفَ تَحَّوَلَ جزءٌ منهم إلى زُهورٍ وفَواكه بَدَلاً من هَيَئةِ الإنسان. وبينما هى تُفَكِّرُ وجَدَتْ حمامةً مربوطةً بحَبْلٍ وهى تُحَاوِلُ أنَ تُخَلِّصَ نفسَهَا وهى تَعْرفُ فقالَتْ لنفْسها:

ـ لابُدَّ أنَّها تَتَعَذَّبُ مثلى.

ـ لابُدَّ أن أُخَلِّصَهَا من عَذَابِهَا.

وتَقَدَّمَتْ منها وفَكَّتْ الحَبْلَ فقالتْ لها الحَمَامةُ:

ـ شُكْراً لك.. شكراً، شكراً..

وبمجَرَّد أنْ طَارتْ الحمامةُ حتى اتسعتْ الجدرانُ وتحوَّلَ المكانُ إلى بَهْوٍ كبيرٍ وَنَزَلَ من سَقْفِ القَصْرِ غُلامٌ وقالَ لها:

ـ أنا هُنا لخدْمتك.

تَعَجَّبَتْ وسَأَلَتْهُ

ـ ومن أنتْ؟

رفَعَ يَدَيْهِ وقال:

ـ أنا خادِمُ الرَّحْمَةِ.

ـ لقد رَحِمْتِ الحَمامَةَ وَخلَّصْتِهَا من قَيْدِهَا وأعْطَيْتِها الحُرِيَّةَ.

ـ نَعَمْ لقد فَعَلْتُ ذَلكَ

ـمن يَفْعَلْ خَيْراً يَجِدْ خَيْراً!وأنا هُنا لأَرُدَّ لكِ الخَيْرَ الذى فعَلْتِه.

ـ وستَفْعَلُ ما أُرِيدُه؟

ـ نَعَمْ فى حُدودِ الرَّحْمَةِ.

ـ إذنْ أُريدُ أَنْ أُقابلَ الشَّيْخَ حامدَ.

ـ أنا آسِفٌ.

ـ أَلَمْ تَقُلْ إنْكَ ستُحقِّقُ رَغْبَتى؟

ـ قُلْتُ فى أمُورِ الرَّحْمَةِ فَقَطْ أمَّا ماتَطْلُبِيْنَهُ فهُوَ مِنْ أُمُورِ المعَرفَةِ.

ـ وماذا تَسْتَطيعُ أن تَفْعَلَ لِى.

ـ لقد أخرجتُكِ من وَرْطَتك عندما ضاقَتْ عَلَيْكِ الجُدْرَانُ! وأنا أفعلُ أىَّ شىءٍ من هذا القَبيلِ.

لم تَجِدْ ما تطلُبهُ منه فى الوقْتِ الحالى فَقالتْ له:

ـ هل لو وَقَعْتُ فى ورْطَة.. ففى أىِّ وقتٍ تُنْقذُنِى؟

ـ لو أننى ذَهَبْتُ فلن أَحْضُرَ مَرَّةً ثانيَةً إلا إذا...

ـ إلا إذا ماذا؟

ـ إلا إذا رَحِمْتِ فسأتى لكِ فَوْراً.

ـ لكننِى جائعةٌ وعَطْشَى وعندما أتذَّوقُ الفَاكِهَةَ تتحولُ إلى ذهبٍ وعندما أتَذوقُ الماءَ يتحولَ إلى جَواهِرَ.

ـ عَنْدكِ حَقٌّ

لمس يَدَيْها بشىء كان بيَدَيْه[1] وقالَ لهاَ.

ـ مِنْ الآنَ سَيَحْدُثُ العكْسُ.

ودَخلَتْ أولَ غُرْفَةِ فوَجَدَتْ تُفَاحاً من الذّهبِ والأوانى بها مُجَوْهراتٌ فقالَتْ فى نفسِها:

ـ آللهُ! ما أجْمَلَهَا! ما شاءَ اللهُ!

ثم تَحَسَّرَتْ وقالت:

ـ ليْتَها كانَتْ فاكهةً طبيعيّةً لآكُلَ وأشْبَعَ.

وتناولَتْ تفاحَةً وبمجردِ لَمسهَا تحولَتْ إلى تفاحة حقيقية ففَرِحَتْ وتذكرَتْ ما قالهُ لها خادمُ الرحمَة مِن أنّ الفاكهةَ لن تتحولَ إلى ذهبٍ ولكن يَحْدُثَ العكسُ. وحملَتْ كُوبًا من جَواهرَ فتحولَ إلى ماءٍ فشربتْ وقالتَ بصوتٍ عَميْق:

ـ الحمدُ لله.

وعلى الفَورِ ظَهرَتْ فتاةٌ جميلةٌ وقالت:

ـ أيةَ خدمةٍ أستَطيعُ أَنْ أُقدمَها لَكِ.

---

(١) كعصاً دقيقةٍ ، مثلاً . . المصحح.

اندهشتْ وقالَتْ لها:

ـ منْ أَنْتِ؟

ـ أنا خادمةُ الشَّاكِرِيْنَ.

ـ ومن أتى بكِ إلى هُنَا؟

ـ أنتِ.

ـ كيْفَ؟

ـ ألمْ تقولى الحمدُ لله.

ـ بَلَى.

ـ إذَنْ فأنْت شاكرةٌ لنْعَمةِ الله.

ـ أريْدُ أنْ أَعْرِفَ شيْئاً واحداً.

ـ ما هُوَ؟

ـ أينَ الشيخُ حامدُ؟

ـ هذا عنْدَ خادمِ المَعْرفَةِ.

ـ كيفَ أُقابلُهُ؟

ـ إذا فَعلَتِ شيئاً يَدُلُ على رَغْبَتِكِ فى المَعْرِفَةِ.

فقالتْ لها:

ـ وماذا ستُقَدِّمينَ أنَتِ لى؟

ـ إنّ الله يُحبُّ الشاكرينَ ويَزِيدُهُمْ من فَضْله وأنت من الشاكرين وقد شكَرْتِ اللهَ عندما أَكَلْتِ ؛لذا سأترُكُ لكِ أَطْيَبَ

المأكُولات والمشرُوبات.

تركتْ الغُرفة ودَخَلت غرفةً ثانيةً فوجدتْ بها جَريدةً ففتحَتْهاَ لتَعْرِفَ ما بها وما إن لَمِسَتْها حتى ظَهرَ غُلامٌ جميلٌ وقالَ لراويةَ:

- أيةُ خدْمَة؟

- منْ أنْتَ؟

- أنا خادمُ المعْرفة.

ضحكتْ كثيرا وسَعِدَتْ جداً. وأخيراً ظهرَ خادمُ المعرفَة وسألتْهُ على الفَورِ.

- أَيْنَ الشيخُ حَامدُ؟

بكَى وقالَ لها:

- ماتَ.

- متَى؟

- مُنْذُ ألفِ عامٍ.

وتَذَكَّرَتْ أنه خادمُ المعرفَةِ ويعرفُ كُلَّ شَىء فقالَتْ له:

- أُريْدُ أن أعرفَ سرَّ هذه المدينَةِ.

رفع يَدَيْه فى الهواءِ وقال لها:

- أنا لا أُجيْبُ إلا عن سؤال واحدِ فقطْ وأنتِ وقد سألتِ

عن الشيخ حامدِ وقد أجبْتُكِ.

حَزِنَتْ وقالت له:

- أرجوكَ أُريدُ أن أعرِفَ. قُلْ لى أَرْجُوْكَ.

اعتذَرَ بِرِفْقٍ وقال لها:

- أنا أُجيْبِ عن سؤالٍ واحدٍ فَقطْ وأنتِ قد سألتهِ قالت له باسْتِجْدَاء[1]:

- هل ستقولُ لى في المرّةِ القادِمَةِ؟

- أيةِ مرة قادمة؟

- عندما أفعَلُ شيئاً يَدُلُّ على أَنَّنى أَبْحَثُ عن المعرفَةِ.

- لا

- لماذا؟

- أنا أَحْضُرُ مرةً واحدةً فَقطْ وأُجيْبُ عن سؤالٍ واحد فقط.

نَدمَتْ لأنَهَا لم تَسْأَلْهُ مباشرَةً عن سرِّ المدينة. أَحسَّتْ بالتعب فقامتْ وتوضأَتْ وصَلتْ ونَامتْ فجَاء لها هَاتِفٌ[2] فى المنَامِ يقول:

- الشيخُ حامدُ لم يَمُتْ!؟ - الشيخُ حامدٌ لم يَمُتْ!؟

- الشيخُ حامدُ لَمْ يَمُتْ!؟

(١) باستعطاف بالغ.. المصحح.

(٢) نداء أو صوت سمعه الحالم.. معجم مرشد الأريب.. للخيارى.. المصحح.

قامَتْ فى الصَّباحِ مُنْدهِشَةً! هل كَذَبَ علَيَهْا خادِمُ المَعْرفة! قط لَمْ يكْذِبْ إذَنْ ما هذا الهَاتفُ الذى يُؤكُدُ لها أنَّ الشَيْخَ حَامِدَ لم يمُتْ . ظلَّ الحُلْمُ يتكررُ والهاتُف يُناديْها:

ـ الشيخُ حامدُ لم يَمُتْ!؟

خادِمُ المعِرفَة لن يأتِيَ مرةً ثانيةً. وهى لم تُغادِرْ الحُجْرَةَ التى تَنَامُ فيها. بدأ المَللُ يَتَسَرَّبُ إليها فقامتْ تَتَجَولُ فى أَنْحاءِ القَصْرِ. وبينما هى تَبْحَثُ فى مُحْتَوَيَاتِ الحُجْرَة وجدتْ شيئاً مضيئاً فيها فاتَّجهَتْ إليه فوَجَدَتْه كتاباً. أَخَذَتْهُ وفَتَحَتْهُ فوجدَتْ مكتوباً فيه:



بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ.

والصلاةُ والسلامُ على نَبينا الأمينِ مُحمدٍ ﷺ أنا الشيخُ حامدُ:

ما إنْ قَرأَتْ اسمَ الشيخِ حامدٍ فى الكتابِ حتى سَمِعَتْ الهاتفَ (١)يقول:

ـ الشيخُ حامدُ لَمْ يَمُتْ

قالَتْ لِنفسِها:

ـ عندَكَ حَقٌ

وبدأَتْ تَقْرأ ما كتَبَهُ الشيخُ حامدُ:

أنا الوحيدُ الذى يَعرِفُ سِرَّ هذه المدينةِ وهى إحْدَى عِبَرِ الدُنْيا وقد خِفْتُ أنْ أَموُتَ ويُدفَنَ مَعِىَ السِّرُّ. فَقرّرْتُ أن أُسَجِّلَ كُلَّ ما أعْرِفُهُ فى هذا الكتَابِ:

كنتُ أعملُ حَمّالاً. أحمِلُ للناسِ حَاجَاتِهِم وهُمُومَهُمْ. فَأَحْمِلُ الأَحْمَالَ الثقيلةَ وأقولُ الحكمة لصاحب الأحمالِ فيْحكِى لى ما يُضَايِقهُ وأنا أعظُهُ. وأَسِيْرُ فى شوارعِ المدينةِ. كانَتْ مدينَتُنا هذه فقيرةً جِداً تَرَى البُؤسَ فى كُلِّ مكانٍ وعلى

(١) وهو صوت يسمع ولا يرى.. أيضا.. المصحح.

كلِّ وَجْهٍ وفى يومٍ من الأيامِ أوقَفَنِى أحدُ المارَّة وقالَ لِى:

- هل تَسْتَطِيعُ أن تحمِلَ هذا الجُوَالَ؟

وأشارَ لجوالٍ كبير فقلتُ له:

- أَحْمِلُ في قَلْبِى أثقَلَ من هذا الجُوالِ!؟

قال لى:

- لا تَحْمِلْ هذا الجوالَ وسَأُعْطِيَك أُجْرَتَكَ.

ابتعدتُ عَنْهُ قائلا:

- أنا لا آخُذُ أَجْراً بدون عَرَقٍ.

مد يَدَيْه وجَذَبَنى بِرِفقٍ وقالَ:

- إحْكِ لى فقط عما تَحمِلُهُ فى قَلبِكَ وسأُعْطِيكَ أَجْرَ حِكَايَاتِك.

خَلَّصْتُ يَدى من يَدِه وقُلْتُ:

- لو كُنْتُ أَبيعُ الكلامَ لأصبَحْتُ اليومَ من الأَثْرِيَاء.

بَدَا عليه اليأسُ وقالَ:

- إذن ماذا تُريدُ مُقابلَ حكاياتك.

- لا شَىْءَ ولكنْ أُريدُ أن أعرفَ أوَّلاً لماذا تُريدُ أن تسمعَ

حكاياتى؟

ظَهرَ على وجهِهِ الارْتياحُ وقال:

- أنا أحملُ هَماً كبيرًا وأظُنُّ أنه لا يُوجدُ أكْبَرُ منْهُ ولذا فقد أَردْتُ أن أسْمَعَ منْكَ، لأَسْترِيحَ، أو أتْعَبَ أكثرَ.

جلستُ إلى جُوارِهِ وقلتُ له:

- صلِّ على نَبيِّنا العَدْنَانِ.

- أَللّهُمَّ صَلِّ وسلمْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبهِ وسلِّمْ.

- عندما تَغيبُ الشمسُ فإنها تُدارى عنَّا سرَّها ولكنَّ أسرارَ الناسِ تَكْشِفُ آلامَهُم وسأحكى لك جُزْءاً من هذه الآلامِ ولن أقولَ عن[1] اسمِ صاحبِ الألَمِ حتى نَصُون سِرَّهُ.

وَقَفَ الرجُلُ وقال لى:

- لِنَمُرَّ على هذه البيُوتِ المُغْلَقَةِ لِتُعَرِّفَنى عُنْوانَ صاحبِ الألَمِ فقط وليسَ اسْمَهُ

اعْتَرَضْتُ قائلاً:

- شَرْطِي إن حكيتُ ألا تَسْألَنَى عن الاسمِ ولا العُنوانِ.

(١) لن أخبر عنه مُصَرِّحًا به.. المصحح.

أمِنَ [1] الرجلُ لى وكشَفَ لى سِرّهُ وقال:

- أنا المَلِكُ!

لم أُصدِّقْهُ فقلتُ.

لا تَهْزأْ بى.

أزَالَ ما كان يَتنكَّرُ به[2] وقال:

- انُظرُ أنا مَنْ؟

إِنه الملكُ فعْلاً وأدَّيْتُ له التَّحيَّة الواجبةَ وسَألْتُهُ:

- لماذا تَتَنكَّرُ؟

تَنَهَّد[3] وقَالَ:

- أنَا ملك فى الدُّنيا وبعد المَمَات سأكونُ مَمْلُوكاً لأعْمالِى إن كانتَ خَيْراً أو شَرّاً. وسيحاسِبُنى ربِّى عن كُلِّ رَعَايَا دولَتِنا وإنْ تركتُ صاحِبَ مشكلةٍ صَارَتْ يومَ القيامةِ لى أنا مشكلةً.

- لَقيْتُ إذَنْ ملكاً عظيماً نُحِبَّهُ ونُحِبُّ عَدْلَهُ ورحمَتَهُ برعِيَّتِه.

وقلتُ له:

- ما هذا الجوُالُ؟

(١) اطمان.. المصحح.

(٢) يخفى نفسه.. المصحح.

(٣) أخذ نفسا عميقا.. المصحح.

- إنه مَحْشُوٌّ بالذَّهَبِ والجوهرِ. من قال لى سِراً أَعْطيته مِنْه ما يريد فقُلْ لى وخُذْ ما تريدُ.

- مهما أَعطيْتَنى فلن تُعْطينى كما سَيُعْطِيْنى ربِّى لو حكَيْتُ لكَ عن آلامِ الناس وساهَمْتُ فى التخفيفِ عنهُم.

- أُعاهدُك أَنْنى لن أُغْضِبَكَ ولكنْ قُلْ عَنْ آلامِ الناسِ.

وقمتُ معه وسِرْنَا فى الشَّارِعِ الذى يَفْصِلُ صَفَّيْنِ منَ المنازِلِ مغلقَةِ النوافِذِ وقلتُ له بعد أن أَشَرْتُ إلى نافذَةٍ مُغْلَقَةٍ:

- خلفَ هذه النافذَةِ حكايةٌ من أغربِ الحكاياتِ.

قال لى:

- قُلْ وأنا مُنْصِتٌ لَكَ.

خَلْفَ هذه النافذة سَعِيدٌ (١) آسفٌ أَقْصدُ أنْ أقولُ إن خَلْفَ هذه النافذَةِ رجلا اسْمُهُ سَعيدٌ وكَمْ منَ الأَسَامى(٢) تكُونُ رائعةً وجميلةً ولكنَّ أصحابَها يحملُونَ صفاتٍ عكْسَ أَسَامِيْهِمْ ومن هؤلاء هذا الرجلُ الذى يَحْمِلُ اسمَ سَعيد إنه كانَ فى بداية شبَابِهِ من المسَاكِينِ.

---

(١) عُدِلَ عن التَّسْمِية الحقيقية، وذُكِرَتْ أسماءُ تحمل فى طياتها معنىً، ويُرْمزُ بها إلى مدلول ما.. المصحح.

(٢) الأسماء.. دليل التسمية.. معجم مرشد الأريب.. للخيارى.. المصحح.

لا يُجِيْدُ حِرْفَةً وكلَّ يومٍ كان يطَرُدُه صاحبُ عملٍ؛ من غبَائِهِ، وفى يومٍ باسمٍ قابَلَ فتاةً حظُّها مثلَهُ عاثِرٌ فَأَحبَّهَا وقال لها:

ـ أُريدُ أن أتَزَوَّجَكِ.

وقَاَلتْ له:

ـ وأنا كَذَلكَ وَلكِنْ كيفَ نَعِيْشُ؟

قالَ لَها:

ـ كما نَعِيشُ الآنَ.

نظرَتْ له نظرةً نارِيَّةً وقالَتْ:

ـ اضْمَنّ لى حَيَاةً مرفَّهةً وأنا أَقَبْلُ الزواجَ مِنْكَ.

قال لها بغَضَبِ:

ـ أنتِ الآنَ تعيشين حَيَاةً فقيرةً! فَكَيفَ تَطْلُبِينَ الرفاهيَةَ؟!

أعطَتْهُ ظَهْرَها وقالَتْ:

ـ أُريدُ أَنْ أُودِّعَ الفقْرَ.

مشَى حَزينا. فهوَ يُحبُّها جداً وكانتْ هذه الصدْمةُ سَبباً فى نَجَاحه فقد بَدَأَ بالتِّجارةِ فى البضائعِ الرخيصةِ وكسِبَ مكَاسبَ

كبيرةً فزادتْ تجارَتُهُ إلى أنْ أصبح من كبارِ التُّجَّارِ وتَزَوّجَ حبيبتَهُ ولكنَّ الثروةَ لَعِبَتْ برأسه وغضبَ منْها لأنَها لَمْ توافِقْ على الزواجِ منه إلاّ بَعْدَ أنْ أصْبحَ من الأثْرِيَاءِ وراحَ يُبَذِّرُ فى أمواله على القِمَارَ وعلى أصدقاءِ السُّوءِ فقالتْ له زوجَتُهُ:

ـ إننى أرُيدُ زوجًا يَعْطِفُ على بَيْتِهِ وأولادهِ.

قال بغُرورٍ:

ـ ماذا يَنْقُصُكِ؟

اقْتربَتْ منْهُ وقَالَتْ:

ـ أُرْيدُكَ أن تَسْمَعَ مَشَاكِلَنَا.

أَخْرَجَ من جَيْبهِ رُزْمَةَ نُقُودٍ وبَعْثَرَهَا فى الهواءِ وقال لها:

ـ هذه الأموالُ تَحُلُ مشاكِلَكِ.

بكَتْ وقاَلتْ:

ـ شَبِعنْاَ من الأموالِ ونُريدُ الأُسرةَ المُتَرَابِطَةَ.

ضَرَبَهَا وقال لها:

ـ ألَمْ تتَزَوَّجيْنى من أَجْلِ هذا المالِ؟

سكَتَتْ على مَضَضٍ وأضْمَرَتْ في نفسِهَا شيئاً وتحوَّلَ بَيْتُهُما

إلى نارِ جَهنَّمَ رغْمَ أموالهِمْ الكثيرةِ ومضَىَ هُوَ فى بَعْثَرَةِ أموالهِ فى أَوْجُهِ الحَرامِ من قِمَارٍ لأصدقاءِ السوءِ لمحاربةِ الناسِ وإذْلالهِمِ وراحتْ زوجتُهُ هى الأُخْرى تُحَوِّلُ حيَاتَهُ لجحيمٍ فكَرِهَهَا ولم تَيْأسْ، فقد راحَتْ تُبَذِّرُ هى الأخْرى فى أموالهِ على الجواسيسِ لتَعْرِف بذلك أخبارَهُ، وكانتْ بِحُسْنِ نيَّة تُفْشِى هذه الأسرار حتى عَرَفَهاَ منافسُوه فحاربُوه حتى انكَسَر وأَفْلسَ وصارَ بائساً وتَجبَّرَتْ هى عليه. فصارت تَطْرُدُهُ من البَيْتِ ويَظَلُّ يتوَسَّلُ لها أنْ تَتْرُكَهُ وقد ضعُفَتْ قُوَّتهُ من فَرْط شُرْبِ الخُمُورِ والمُخَدِّراتِ وأصبَحتْ حياةُ هذه الأُسْرَةِ حياةً بائسةً جِداً.

بكى الملكُ وقال لى:

ـ مَنْ فِيهِمَا المُخْطِىءُ.

ـ إنهُما مِثْلُ الحِمَارِ الذى يَحْمِلُ الخَيْرَاتِ ولا يَسْتفيدُ منها.

أخرجَ الملكُ حَفْنَةً من الذَّهبِ وقال لى:

ـ خُذْ هذه وأَعْطِهَا لَهُم وأحْكِ لى ماذا حَدَثَ لهم بعْدَ ذلك

وطَرَقْتُ البابَ وقلتُ لسعيدٍ.

ـ خُذْ هذا الذهبَ وادْعُ لِملِكِ البلادِ.

وسِرتُ أنا والملكُ وأشَرتُ إلى نافذةٍ قائلا:

ـ خَلْفَ هذه النَّافذة قصةٌ من أَعجَبِ الحِكَاياتِ.

نَظَرَ لى الملُك مندهشا وقال:

ـ قُلْ وأَنَا مُنْصِتٌ.

قلتُ بعْدُ الصلاةِ على نبينَّا محمدٍ ﷺ.

ـ خَلْفَ هذه النافذةِ رجلٌ اسمُهُ صادقُ وكَمْ من الأسَامِى الجميلةِ لأخلاق غيرِ جميلةٍ. صادقٌ هذا يُضْحِكُ الناسَ طُوالَ النهارِ وَيْبكى هو طُوالَ المساء. إن صَادقَ هذا يَعمَلُ فنَّاناً. يُضْحِكَ الناسَ فى الشوارعِ ويَمْسَحُ أُحْزَانَهمُ ويُرفِّهُ عَنْهُمْ ولم يكُنْ أَمينًا فى عَمَله فقَدْ كان يُمارِسُ السَّرِقَةَ وهُوَ يَنْدَسُّ بَيْنَ النَّاسِ وَلا يكْتَفِى بالمكْسَبِ الحَلالَ وفى أحد الأيام وهُوَ عائدٌ لبيْته فى المسَاء رأى رَجُلاً يَقْتُلُ رَجُلاً آخَرَ ليَسْرِقَهُ فَأرادَ أنْ يَغْتَنِمَ الفُرُصَةَ فَتقَدَّمَ مِنَ القاتلِ وقالَ لَهُ:

ـ لقَدْ رأَيْتُكَ.

خاَفَ القَاتلُ وقالَ لصادقٍ:

ـ ماذا تُريدُ؟

قال صادقٌ وعَيْناه تَبْرُزَانَ:

- أُريدُ نِصْفَ ما مَعَ القتيل.

أعطاهُ القاتلُ ما أرادَ وأوصاهُ ألا يُخْبِرَ أحدًا بِمَا رأى. . رَجِعَ صادِقٌ لِبيتِهِ وهو فَرِح مَسْرورٌ فاستوقَفَهُ غُلامٌ وسَأَلَهُ:

- هل رأيتَ أبى؟

- مَنْ والدُكَ؟

وَصَفَ له أباهُ وكانتْ أوصَافُهُ تَنْطَبِقُ على القَتيل فكَذَبَ صادقٌ وقالَ لَهُ:

- لَمْ أَرَهْ!

رجاهُ الغُلامُ أنْ يَصْحَبَهُ إلى بَيْته فَصَحبَهُ إلى بَيْته وأَصَرَّ على أنْ يَدْخُلَ مَعَه ووَجدَ بالبيتِ امرأةً عَجُوزًا قد أُصِيبَتْ بالعمَى فسألَ الغُلامَ:

- مَنْ هَذِهِ؟

قال الغُلامُ:

- هى جَدّتَى.

سَأَلَهُ صادقٌ:

- أينَ أُمُّكَ؟

- ماتَتْ.

- ومن يُنْفِقُ عَلَيْكُمَا؟

- أبِى الغائِبُ.

تركَهُ ولم يُعْطِهِ حَتىَّ جُزْءاً من نُقودِ أبيهِ التى أخَذَهَا منَ القاتلِ وفِى اليومِ التالِى عَثَروُا على الجُثَةِ، وقال شاهِدٌ إنه رأَىَ صادِقَ يَسيْرُ بالقُرْبِ من الجُثَةِ وسأَلَهُ القاَضِى.

- هَلْ رأَيَت القَاتلَ؟

قال صادِقُ بِثِقَةٍ . :

قَطُ! ولَمْ أَرَ الجُثَّة.

قال القاضِى.

- لكنَّ الشاهِدَ رآَك وأنتَ تَسِيرُ بجُوارِ الجُثَّةِ؟

قال صادقٌ.

- اسأَلْ ابْنَ القَتيلِ لَقَدْ كنتُ أَبْحَثُ عن أبيه مَعَهُ.

سألَ القاضِى الغُلامَ فقال إن صادقَ كان مَعَهُ وتَرَكَهُ ولكنَّ المدينةَ كُلَّها ظَنَّتْ أنَّه القاتلُ وتَجَنْبُوهُ فانتْهَتْ نُقودُهُ وصارَ فقيْراً وفى يوم ٍمنَ الأيامِ كان يَسِيْرُ فرأى القَاتلَ يَستنجدُ بالناسِ وهو يَغْرِقُ فى النّهْرِ ولم يُنْقِذْهُ أحدٌ لأنَّ الذين يسيرون بجُوَار النهرِ كانوا من الأشرارِ وماتَ القاتلُ وبَقِىَ صادقُ يَظُنُّهُ الناسُ أنه هو

القاتل وأصبحَ يُحاولُ إضْحاكَ الناسِ طُوالَ النهارِ فلاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ ويَظَلُّ يَبْكِي طُوالَ المسَاءَ.

بكَىَ الملكُ وقال:

- لقد تَسَتَّرَ على القاتلِ فألْصَقَ الناسُ به التُهْمَةَ:

وَأَخْرَجَ الملكُ حَفْنَةً من الذَهَبِ وأعطَاها لى وقال:

- خُذْ هذه وأَعْطِهْا لصادِقٍ.

وأخذْتُ الحفْنَةَ وطَرَقْتُ البابَ وقلتُ لصادِقٍ.

- هذه هديةُ المِلكِ إليك.

وقال الملكُ:

- راقِبْهُ وأَخْبِرنِي بما فَعَلَهُ.

سِرْتُ مع المِلكِ وأشرْتُ إلى نافذَةٍ وقلتُ له.

- خلْفَ هذه النافذة امرأةٌ اسمُها أمينةُ وكَمْ منَ الأسماءِ الجميلة وأصحابها يَنْضَحُ منْهُمُ القُبحُ والخيانَةُ. أمينةُ هذه لها لِسَانٌ يَجْلِبُ المَصائبَ. فقد كانتْ لا تمْكُثُ فى بَيْتِهَا إلاَّ فى المساء أمَّا فى الصَّباح فكانت تَمُرُّ على الجيْران وتُوشَوِش[1] للزَّوْجات تحَرِّضُهُنَّ على أزواجِهِنَّ. وتُخْرِبُ البُيُوتَ! وفى يوم

(١) هو من الوَسْوَسةِ والإِيقاع فى حَبَائِلَ السُّوء أيضاً... المصحح.

من الأيامِ. ذَهبتْ لجَارَةٍ جَديدَةٍ لها فرَحَّبَتْ بِها وسألَتْهَا:

ـ ماذا يَعْمَلُ زَوْجُكِ؟

ـ تاجِرَ حَرَائِرَ.

ـ وعلَى مَنْ يَعْرِضُ بِضَاعَتَهُ؟

ـ على نساءِ المدينَةِ ورجالِها.

ـ وما مَكْسَبُهُ؟

ـ قَليلٌ جداً.

ـ وما أوصافُهُ؟

ـ أطولُ رجُلٍ فى المدينةِ ووَجْهُهُ صغيرٌ أبيضُ وشعرُهُ فى لونِ الفَحْمِ [1].

دَبَّتْ [2] أمينةُ على صَدْرِهَا وقالَتْ:

ـ لقدْ رأيتهُ أَمْسِ؟

ـ أينَ؟

ـ عندَ جيْرَانٍ لَنَا وباعَ لهمْ ثَوْباً.

ـ قال لى إنَّهُ لم يَبِعْ شيْئًا أمْسِ.

---

(١) شديد السواد.. المصحح. (٢) المراد صكّتْ وضربت دهشة.. المصحح.

- ألَمْ يُعْطِك نُقودا؟

- لا.

نَفَخَتْ أمينةُ وقالَتْ:

- لا أُريدُ أن أحكِيَ لَكِ حتَّى لا تَقُولى إننى أَفْتِنُ عَلَيه[1].

تَوَسَّلَتْ لها أنْ تُخْبِرها فقالَتْ:

- لقد أَخْرَجَ رُزَماً من النُقُودِ لا حَصْرَ لهاَ!

تَركَتْهَا أمينةُ وخَرجتْ وعندما عادَ الزوجُ تَشَاجَرَتْ معَهُ زَوْجَتُهُ فَطَلّقهاَ لَكثْرة مُشَاجرَتِها لَهُ. وذَهَبَتْ الزوجَةُ لأمينةَ لتقُولَ لها إنَّها قد طُلِّقَتْ فقالَتْ لها أمينةُ:

- لو كانَ بَيْتى أنا لجَعَلْتُك تَمْكُثِينَ مَعِى لكنَّهُ بيتُ زوجِ ابنتِى وقد حَرَّمَ عَلَيَّ أنْ أستضيفَ أحدًا فى بيتِه.

وخرجَتْ الزوجَةُ حَزينة لا تَعْرفُ مَأْوًى لها وكانَتْ أمينةُ كاذبةً فَعَاقَبَها اللهُ بضيفٍ ثَقيلٍ لكنَّهُ لا يَسْكُنُ بَيْتَها ولكنْ يَسْكُنُ جَسَدَها إنه مَرَضٌ فى قدمَيْهَا يجعلُها تَصْرُخُ من الألَمِ.

بكى الملكُ وسألنى:

- وما مصيرُ الزوجةِ؟

---

(١) أى: أشِى به، وأوقع بينكما.. المصحح.

ـ رفض كلُّ بيتٍ فى المدينةِ استضافَتَها فاختفَتْ ولا نَعرِفُ مَصِيْرَها . .

أَخْرجَ الملكُ حَفْنَةً من الذهبِ وقالَ لى :

ـ أَعْطِهَا لأمِيْنَةَ .

وأعطَيتُها لَهَا وقلتُ لها :

ـ هذه هَدِيَّةُ الملكِ .

وقالَ لىَ المَلكُ :

ـ تتَبعْ أحْوالَها وقلْ لىَ ما جرى بَعْدَ حِيْنٍ .

مررْتُ مع الملك أحْكى له قِصصَ المديْنَةِ حتى مررْنا عَلَيْها كُلِّها وأعْطَانى المَلكُ لكُلِّ بيتٍ حِفنةً من الذَهبِ وكانَ الجُوالُ لا يَنتْهِى من الذهبِ وسألتُ الملكَ .

ـ مِنْ أيْن هذا الجُوالُ؟

قال الملكُ :

ـ لا أَعْرِفُ مَنْ وضَعَهُ فى غُرْفَتِى .

سألتُ الملكَ :

ـ ولماذا تُوزّعُهُ ولم تَحْتَفظْ لنفسك بهِ؟

قال الملكُ :

ـ سمعتُ هاتفًا يُوْصِيْنى بتَوْزِيعِهِ عَلى الناسِ.

وفى النِّهايةِ قال لى الملكُ:

ـ خُذْ حَفْنَةَ ذَهَبٍ.

ولما وجَدَنى غاضباً قال لى:

ـ خُـذْهَا وأعطِهَا للزَّوجةِ التى أفْسَدَتْهَا أمينةُ وقلْ لى ما سيَحْدُثُ.

أخذْتُ حَفْنَةَ الذهَب وذهبتُ لبَيْتى ورأيتُ العَجَبَ! صارَ الذَّهَبُ مثلَ النَّباتِ كُلَّ يوم يكْبُرُ حتى صارَتْ الحُجْرَةُ كلَّهُا ذَهبًا وقرَّرتُ أن أذهبَ للمَلكِ لأحكِىَ لهُ وقَبْلَ أنْ أقُولَ لَهُ قالَ هو لى:

ـ هل عرَفْتَ ماذا فَعَلَ الذَّهَبُ بِأهْلِ المدِيْنةِ؟

قلتُ له:

ـ ليْسَ بَعدُ.

ـ اذهبْ واعرِفْ أوَّلاً ثم سَلْنِى بَعْدَ ذَلكَ.

وذهبْتُ أولاً لسَعيدِ لأعرفَ ما حدثَ له، ثُمَّ لصَادِقِ ثُمَّ لأمِيْنةَ ثُمَّ لأهلِ المدِينَةِ بَيْتاً، بيتًا وعرَفتُ ما حدِثَ وذَهبتُ للمَلكِ لأحكىَ لَهُ وسَألنى.

ـ هل عَرَفْتَ ما حَدَثَ. ؟

ـ نَعَمْ.

ـ إحْكِ لِى.

ـ أمَّا سعيدٌ فقد عادَتْ لَهُ قُوَّتُهُ وعَاد لضَرْبِ زَوْجَتِهِ وقد وهَجَرَها.

ـ وصادِقُ.

ـ صادقُ يُقْرِضُ فُقَراءَ المُدُنِ المُجاوِرَةِ بالرِّبَا.

ـ وأمينَةُ.

ـ أمينةُ تُفسِدُ نِسَاءَ المُدُنِ المُجاورةَ بذَهَبِهَا.

ـ وباقى أهْلِ المَدينَة.

قُلتُ للمَلك وأنا أبْكِى.

ـ هَلْ تَذكُرُ مدينَة صَقْرٍ.

قال الملكُ:

ـ نَعَمْ وآخِرُ هَدَاياهُمْ حمُولَةُ أَلْفِ جَمَلٍ طَعَامًا.

قلتُ للمِلَكُ:

ـ لماذا؟

قلتُ:

- حتىّ يَحْتكِروُا الطَّعَامَ وليُذلُّوا أهلَ مدينة صَقْرٍ.

- لماذا

- حتىّ لا يتذكَّروُا أنهُمْ كَانُوا يَعْطِفُونَ علَيهِمْ.

- بكَى الملكُ وقال:

- وماذا فعَل الناسُ أيضاً؟

بكَيْتُ مَعَهُ وأَنا أقولُ:

- الفسَادُ صَارَ كالنَّارِ يرْعَى فى كُلِّ بَيْتٍ فى المَدِينْةِ.

قال الملكُ:

- والعَملُ

قلتُ وأنا أنْظُرُ للسَّماءِ:

- مَصِيْرُهُمْ عنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالىَ.

قال لِيَ المَلكُ:

- اذهبْ يا شيخُ حَامِدُ وتَتَبَّعْ أَعْمَالَهُمْ وعُدْ لتَقُولَ لِى ماذا يَفْعَلُونَ.

وعَدْتُ لَهُ بعْدَ عِدَةِ أيامٍ وسَألَنى.

ما وراءَك!

- لا أُعرِفُ مِنْ أَيْنَ أَبْدأُ.

ـ قال الملكُ:

ـ قُلْ وابدَأْ مِنْ حيْثُ شِئْتَ.

ـ يَزْرَعُونَ الذَهَبَ فى الأرضِ الزِّرَاعِيَةِ.

تَعَجَّبَ المِلكُ وسَألَنِى:

ـ لماذا؟

ـ عنْدما رأَوُا الذَهَبَ يَترَعْرعُ كالزرْعِ طَمِعُوا فى المَزيْدِ فزَرَعُوه فى الأرض ورَمَوْهُ فى الماءِ.

سأل الملكُ:

ـ وماذا جرَىَ؟

ـ سأَذْهَبُ لأعرِفَ ماذا حدَثَ وأَعُودُ لأقَوُلَ لكَ ما رأيتُ... وبعد عِدَّةِ شُهور ذَهَبْتُ للمَلِكِ وسَألنِى

ـ لماذا غبْتَ هَذه المُدَّةَ؟

ـ حتَىَّ يَنْضِجَ المَحْصُولُ

ـ وهل نَضِجَ؟

ـ نَعَمْ!

ـ وماذا حَدَثَ؟

ـ خَرَجَتْ من الأَشْجارِ ثمارٌ عجيبةٌ.

ما هِيَ؟

ـ فاكهةٌ إذا تَذَوَّقَهَا إنسانٌ تَتَحَوَّلُ إلى ذَهَبٍ.

ـ هَلْ فَرِحَ أهلُ المدينةِ.

ـ فى بدايةِ الأَمْرِ فَرِحُوا بهذِهِ الثَّرْوَةِ.

ـ وبعدَ ذَلكَ.

ـ عنْدَما جَاعُوا وعَطِشُوا حَزِنُوا.

سَأَلَنِى المَلكُ:

ـ هَلْ سَيَمُوتُونَ؟

ـ لا

ـ تَعَجَّبَ الملِكُ وسَأَلَنَي:

هل يَعيْشُونَ بِدوُنِ طَعَامٍ ولا مَاءٍ؟

قلتُ

ـ تعالَ مَعى لتُشَاهِدَ بنَفْسِكَ.

سارَ مَعَى المَلكُ وما إنْ رأَى الناسُ حَتَّى تَعَجَّبَ وقالَ لى:

ـ لماذا يَضْحَكُ الناسُ بشّدَةٍ؟

قلتُ وأنا أَبْتسِمُ:

ـ عندما رَأَوا الفاكِهَةَ التى تَتَحَّولُ إلى ذَهبٍ ضَحِكُوا وأَصبَحَ

الضَّحكُ مرَضًا أمسك بتلابيبهم[1].

وبَعْدَ فَتْرةٍ بكَى الناسُ بشدةٍ فسألنى الملك ؟

ـ ولماذا يَبْكُونَ؟

ـ هذه أيضًا من أعراضِ المرَضِ.

ـ وعندما تَنْزِلُ دُمُوعهمْ على الأرض فإنها تُنْبتُ ثمارَ الحَنْظَلِ المُرِّ وتتحوّلُ الدموعُ إلى مياهٍ سوداءَ فيأكلونَ هذا الطعامَ المُرّ ويَشربُونَ هذا الماء القَذرَ.

بكىَ الملكُ وقال:

ـ طَمَعُهمْ وأعمالهُمُ الشّرِيرةُ قد أوْصلَتْهُمْ لهذاَ المَصيرِ.

ووجَدَ زهْرَةَ فمالَ عليها ليَقْطِفَها فسَمعَهَا تقول:

ـ أرجوكَ اتْرُكْنِى ولا تَقْطِفْنِى حتى لا أتعذّبَ.

قلتُ للملك:

ـ عندما يَحِيْنُ أجَلُ أحَدِ سُكانِ المدينَة ويَمُوتُ فإنه يتحوَّلُ إلى فاكهةٍ أو ثمرةٍ أو وردةٍ وتظلُ تَتَألَمُ كُلمَا حَطَّتْ عليها حشَرَةٌ أو قطَفَتْها يَدٌ. أو التَّهمَها حيَوان.

قال الملكُ:

ـ لا أَحْتَملُ هذه المناظرَ! أنا عائدٌ لقَصْرِى.

---

(١) يريد: أنه قد تخلل أنفسهم وأشربوه فى قلوبهم فلا ينفك عنهم، ولاهم ينفكون عنه. . المصحح.

عادَ الملكُ ومَرض مرضًا شديدًا من كَثْرةِ حُزَنِهِ على مدينَتِهِ وماتَ.

وبقيْتُ أنا وخِفْتُ أن أموتَ ولا يعرفَ الناسُ ما جَرى فكَتَبْتُهُ فى هذا الكِتابِ وأُوْصِى مَنْ يَعْرِفُ هذه الحقائق أنْ يَحْكِيَهَا للناس حتى يَتَّعَظُوا ويَحْذَرُوا من الشرِّ لأنه يَعُودُ مرةً ثانيةً عَلَيْهِم. ولأنَّنى لم أطمَعْ مِثْلهُم فقَدْ كانَ الذهبُ يتحولُ فى يَدى إلى طَعَامٍ شَهِىٍّ والجواهرُ إلى ماءٍ.

انتهتْ رَاوِيةُ من قراءَة الكِتَابِ وتَعَجَّبَتْ مما حَدَثَ وعندمَا أَغلقَتْ الكتابَ ظَهَرتْ الساحِرةُ التى قابَلتهْا فى بداية رِحْلَتها عندما شَرِبَتْ من النهَّرِ وقالَتْ لها:

ـ بقَراءَتِك هذا الكتابَ تَنْتَهى زيَارَتُك للمَديْنةِ الضَّاحِكَة.

قالتْ راويةُ:

ـ أريدُ أن أَزُورَ بقَيّةَ المُدنِ.

قالتْ السَّاحِرَة:

ـ لَقَدْ شَرِبْت من النَّهرِ مَرَّةً واحدةً وزرت مدينَةً واحدةً ولا أَستطيعُ أن أَجْعلَكِ تَزُورِيْن بقيةَ المدنِ إلا لو شَرِبْتِ من النَّهْرِ مرةً أخَرى.

قالتْ راوية:

- إذَنْ فاذْهَبِى بِى لِلنَّهرِ لأَشْرَبَ مرةً أخرى.

قالت الساحِرَةُ:

- لا! ابْحثى عَنْهُ أنْتِ.

قالت راوية:

- وماذا ستَفْعَلِيْنَ الآنَ؟

قالتْ الساحرةُ:

- سأَذْهَبُ بِكِ لجَبَلِ عَتَاقَةَ مَرَّةً أُخْرَى.

قالتْ رَاوِيَةُ:

- كيفَ؟

قالتْ السَّاحِرَةُ:

- أَغْمِضِى عَيْنَيْك.

أغْمَضَتْ رَاوِيةُ عَيْنَيْهَا وعِنْدَمَا فَتَحَتْهَا وجَدَتْ نَفْسَهَا بجُوارِ جَبَلِ عتَاقَةَ وهِشَام وسَامِح يُنادِيانِها فذَهَبتْ لهُمَا وسألَهَا هشامُ:

- أين كُنْتِ؟

قالت:

- كنتُ فى أَرْضِ العِبَرِ.

وجَلَسَتْ راويةُ تَحْكِى لَهُما رِحْلَتَها المُثِيرَةَ!! (١).

(١) المرادُ: الشيِّقةَ الباعثةَ على العَجب، والمُتْعَةَ.. المصحح.